الدراسات والأبحاث | Research Papers

التشكيلة الخطابية بوصفها مفهومًا حيويًا داخل أركيولوجيا فوكو

The discursive formation as a vital concept within Foucault's archaeology

خالد المجناوي[1] | EL Majnaoui Khalid

(١) باحث بسلك الدكتوراه، جامعة محمد الخامس، (المغرب). البريد الإلكتروني: khalidelmajnaoui96@gmail.com

ملخص البحث:

يحاول هذا المقال أن يُسَلّطَ الضوء على واحدٍ من المفاهيم الأساسية في الفكر الفوكوي، ونقصد بالتحديد مفهوم التَّشكيلة الخطابية؛ ويرجع سبب اهتمامنا بهذا المفهوم إلى مسألتين: أولاهما تتعلق بالأهمية التي يوليها فوكو لهذا المفهوم؛ إذ سعى الرجل من خلاله إلى إعادة قراءة تاريخ الفكر بكيفية مغايرة، كيفية تتحرَّر من وهم الاتصال والتجانس الذي يَسِمُ التاريخ، ومن أُسطورة سيادة الذات التي هيمنت على الفكر الفلسفي ردحًا من الزمن. أما المسألة الثانية، فتتعلق بغياب هذا المفهوم في الدراسات العربية التي اهتمت بفكر فوكو، غياب يكادُ يكون كليّا. على هذا الأساس، سنحاول وضع هذا المفهوم في سياقه النظري، وسنعمل على تحديد الارتباطات القائمة بينه وبين مفاهيم أخرى من قبيل: التاريخ، الخطاب، الحدث. ثم سننتقل بعد ذلك إلى دراسة العناصر التي تتكوَّن منها التشكيلة الخطابية، أي الموضوعات والأنماط التعبيرية والمفاهيم والاختيارات النظرية.

الكلمات المفتاحية: التشكيلة الخطابية - الأركيولوجيا - الخطاب - التاريخ - العبارة.

Abstract:

This article attempts to shed light on one of the basic concepts in Foucault's thought, and we specifically mean the concept of the discursive formation; The reason for our interest in this concept is due to two issues: the first of which is related to the importance that Foucault gives to this concept, through which, this thinker sought to re-read the

history of thought in a different way, a way that is free from the illusion of continuity and homogeneity that characterizes history, and from the myth of the sovereignty of the self that has dominated the philosophical thought for a long time. As for the second issue, it is related to the absence of this concept in the Arabic studies that focused on Foucault's thought, an almost complete absence. Based on this, we will try to put this concept in its theoretical context, and we will work on identifying the correlations between the discursive formation and other concepts such as: the history, the discourse, the event. Then we will move on to studying the elements that make up the discursive formation, namely the objects, the enunciative modalities, the concepts and the theoretical choices.

Key words: Discursive formation - Archeology -Discourse - History - Statement.

استهلال:

يَحْتَلُّ مفهوم التشكيلة الخطابية[٢] مكانة متميزة في فكر فوكو، خصوصًا في الجانب المتعلق بالمنهج "الأركيولوجي" «Archéologie»، حيث يُمثِّل هذا المفهوم عصب هذا المنهج وأساسه المتين، بالإضافة إلى كونه أداة متميزة يستخدمها محللو الخطاب في العالم الفرنكفوني. "وقد شهد هذا المفهوم تراجعًا ابتداءً من ثمانينيات القرن العشرين، دون أن يختفي مع ذلك بشكل نهائي؛ إذ إنه ظل أكثر استخدامًا، لكن بكيفية غير واضحة"[٣]. ويرجع تشكُّل هذا المفهوم إلى علمين بارزين، ميشيل فوكو الذي أدرجه سنة ١٩٦٩ في كتابه "أركيولوجيا المعرفة" «L'archéologie du savoir»، وميشيل بيشو Michel Pêcheux الذي جعل منه واحدًا من المفاهيم الأساسية "للمدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب" التي تأثرت بالماركسية الألتوسيرية (ألتوسير)، والتحليل النفسي اللاكاني (جاك لاكان)، واللسانيات البنيوية[٤].

يبدو إذن أن كل حديث عن الأركيولوجيا بوصفها منهجًا ارتضاه فوكو لتحليل الخطاب Discours دون التوقف عند دلالة التشكيلة الخطابية، يغدو قاصرًا عن تقديم نظرة شاملة تتناول هذا المنهج وتدرسه من الداخل بتمفصلاته وآليات اشتغاله؛ لذلك سيكون مقالنا هذا بسطًا لمطويات هذا المفهوم، ومحاولة لتبين دلالته ووظيفته داخل المنهج الأركيولوجي.

(2) « La formation discursive ».

(3) **Dominique Maingueneau, Pertinence de la notion de formation discursive en analyse de discours,** édition de la maison des sciences de l'homme «langage et société», 2011/1 n° 135, pages 87 à 99, p :87.

(4) Ibid, p: 88.

فوكو وتقويض مسلمات تاريخ الأفكار:

إن حديثنا عن التشكيلة الخطابية بوصفها وحدة خطابية جديدة يقتضي منا أن نضع هذا المفهوم في سياقه النظري، لكي نتوصل إلى غاية فوكو من صياغته؛ هكذا يُباشر فوكو عمله بانتقاد وحدات الخطاب التقليدية القائمة على مسلمات الأصل Origine والاتصال Continuité والتجانس Homogénéité؛ "فقد لاحظ فوكو أن الوحدات التقليدية تخفق على ميدانها الخاص؛ إذ إن الخصائص الجوهرية التي تُحدِّد تخصصًا تقليديًا ما لا تظل مطابقة لذاتها عبر مجرى التطور"(٥)؛ والحال أن تاريخ الأفكار يتعامل مع الخطابات بوصفها وحدات متصلة لها أصل بعيد تنشأ عنه وتتطور؛ لكن كيف السبيل إلى تجاوز وهم اتصال الخطاب؟ إن هذا رهين في نظر فوكو بأن "نضع من جديد موضع سؤال هذه التركيبات الجاهزة، هذه التجميعات التي اعتدنا أن نسلم بها دون فحص، بالإضافة إلى تلك الروابط التي اعترفنا بصلاحيتها منذ البداية"(٦). إن هذه الخلخلة التي سيحدثها فوكو في تاريخ الأفكار، وفي الكيفية التي ننظر بها إلى الخطاب "دليل على أن الأركيولوجيا تسعى إلى تدشين ميدان جديد"(٧)، وذلك من خلال تخلصها من مجموع المسلمات التي تحيط بحقل الخطاب ونسفها لمختلف الوحدات التقليدية التي اعتدنا أن نُسلِّم بها (النحو، البيولوجيا، الطب...).

ويرى فوكو بأن هناك مجموعة من المفاهيم تُكرِّسُ وحدة الخطاب وتعطي لفكرة الاتصال والتجانس مشروعية لا محدودة، يتعلق الأمر بمفهوم التقليد Tradition، التأثير Influence، النمو Développement، التطور évolution، العقلية Mentalité، والروح L'esprit؛ فالتقليد يحول دون إمكانية التفكير في الاختلاف Différence والانفصال Discontinuité؛ لأن كل جديد ما هو إلا نسخة لأصل غابر في الزمن، إن التقليد يضفي الوحدة على التبعثر Dispersion السائد في التاريخ. أما التأثير فإنه "يوفر سندا لوقائع الإيصال والتواصل، ويرد ظواهر التشابه Ressemblance والتكرار Répétition إلى سيرورة ذات طبيعة سببية، ويربط عن بُعد وعبر الزمان وحدات من قبيل الأفراد والأعمال والمفاهيم والنظريات"(٨). في حين يرتكز مفهوما النمو والتطور على إرجاع أحداث التاريخ المبعثرة إلى سلسلة متصلة الحلقات لها بداية ونهاية؛ أما العقلية والروح فإنهما "يسمحان بإقامة اشتراك في المعنى، وروابط رمزية، ونوعا من التشابه والتماثل بين الظواهر المتزامنة Simultanés أو المتعاقبة Successifs، كما يعملان على إبراز سيادة وعي جماعي Conscience collective بوصفه مبدأ للوحدة والتفسير"(٩). إن هذه المقولات تشترك

(5) **Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, Michel Foucault un parcours philosophique,** édition Gallimard, 1984, pour la traduction française, p: 91.

(6) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** édition Gallimard, 1969, p: 34.

(7) **Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, Michel Foucault un parcours philosophique,** op-cit, p: 91.

(8) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 34.

(9) Ibidem.

جميعها في إقرار وجود أصل يمكن أن نَرُدَّ إليه كل لحظات الخطاب، وتُجمع على أن الانفصال في التاريخ حدث عارض ولا يمكننا إثباته.

والحقيقة أن هذا التصور الذي يؤمن بفكرة الأصل وينفي الانفصال في التاريخ هو واحد من المرتكزات التي يعتمدها التاريخ في صورته التقليدية L'histoire dans sa forme classique، وسنرى بأن الأركيولوجيا هي في الأساس قطع مع التاريخ التقليدي وتبني لتاريخ جديد Histoire nouvelle يُقِرُّ الانفصال بدل الاتصال: فالأركيولوجيا والتاريخ الجديد وجهان لعملة واحدة، وهما معا يُكَمِّلان بعضهما. وقد سبق لفوكو أن صرَّح في واحد من الحوارات التي أجراها بأن النصف الثاني من القرن العشرين قد عرف شكَّلا من الابتعاد عن أسلوب مُعتاد في كتابة التاريخ، وهذا ليس بهدف إنكار التاريخ أو رفضه أو انتقاد المؤرخين، بل من أجل كتابة التاريخ على نحو مغاير[10]. إن تأسيس فوكو للأركيولوجيا كمنهج جديد يتجاوز وحدات الخطاب التقليدية رهين بالقطع مع التاريخ في ثوبه التقليدي؛ إذ إن الثورة الكبيرة التي شهدها التاريخ في مطلع القرن العشرين مع مدرسة الحوليات École des annales ودعاة التاريخ الجديد كان لها دور كبير في تأسيس مشروعه الأركيولوجي[11].

إن التاريخ التقليدي لا يُؤمن بوجود انفصالات حقيقية داخل نسيج الخطاب؛ إذ إنه "يفترض الانفصال معطى لكنه غير قابل لأن يفكِّر فيه، إنه يظهر في صورة أحداث مبعثرة -قرارات، حوادث، مبادرات، اكتشافات- وما كان ينبغي الإحاطة به عن طريق التحليل بغية إلغائه ومحوه وإقصائه كي يظهر اتصال الأحداث"[12]. لقد حاول التاريخ التقليدي أن يفكر في الانفصال في أفق محوه وإقرار الاتصال من جديد، فلم يكن الانفصال بالنسبة له غاية، بل وسيلة لتأكيد الاتصال من جديد؛ لكن السؤال الذي يطرحه فوكو هو: ما الذي يدفع دُعاة التاريخ التقليدي الذي يرتكز على فكرة الاتصال والغائية إلى عدم قبول فكرة الانفصال في التاريخ؟ ما الذي يدفعهم إلى إبداء امتعاضهم بصدد إمكانية بلورة نظرية في التاريخ العام L'histoire générale الذي يقوم

(10) **Michel Foucault**, Dits Et écrit 1954-1988, édition Gallimard, Tome 3, 1976-1979, la scène de la philosophie, entretien avec M. Watanabe, le 22 avril 1978, sekai, juillet, 1978, pp. 312-332, p: 580.
وفي هذا الصدد، كتب بول فاين عن فوكو: "إن فوكو هو التجسيد الأمثل للمؤرخ، إنه النقطة التي اكتمل عندها التاريخ. [...] إن هذا الفيلسوف هو واحد من المؤرخين الكبار لعصرنا، ولا أحد يشك في ذلك؛ ولكن بإمكانه أن يكون أيضًا كاتب صفحات الثورة العلمية التي جال حولها المؤرخون". إن اهتمام فوكو بالتاريخ وتبنيه لموقف دعاة التاريخ الجديد عدَّه ضمن المؤرخين وليس ضمن الفلاسفة، وهي الصفة التي يحبذها فوكو أيضا والتي غالبا ما صرّح بها في حواراته. (انظر: Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, Foucault révolutionne l'histoire, p: ٣٨٦)

(١١) إن علاقة فوكو بمدرسة الحوليات علاقة جد معقدة، ففوكو يصرح بأنه يمتلك علاقة وطيدة مع المؤرخين الذين ينتمون إلى مدرسة الحوليات في فرنسا، وتحديدا مارك بلوخ Marc Bloch وفرناند بروديل Fernand Braudel (انظر: (la scène de la philosophie, entretien avec M. Watanabe إلا أن دولوز يشير إلى مسألة أساسية في محاضراته حول فوكو سنة ١٩٨٥، حيث يقول: "إن الجميع يعلم بأن فوكو يمتلك علاقة وثيقة مع دعاة ما نسميه بالتاريخ الجديد، خصوصًا تلامذة بروديل، مدرسة الحوليات؛ ولكنها علاقة جد معقدة. إنه يصرح بأنه ليس مؤرخا، ولكنه فيلسوف وسيظل كذلك. ومع ذلك، فإن جزءًا كبيرًا من عمله يتعلق بالتشكيلات التاريخية، إلا أنه ما فتئ يكرر بأن الأمر يتعلق بدراسات للتاريخ وليس بعمل للمؤرخ". يدفعنا هذا إلى التأكيد على الغموض الذي يشوب العلاقة التي تجمع فوكو بمدرسة الحوليات ودعاة التاريخ الجديد. (أنظر: درس دولوز، ٢٢/١٢/١٩٨٥)

(12) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 17.

على الانفصال والقطيعة؟ إنهم يحاولون، من منظور فوكو، الحفاظ على الدور التأسيسي للذات، "فالتاريخ المتصل هو الرَّديف الملازم للدور التأسيسي للذات، فهو الذي يضمن لها أن تستعيد كل ما ضاع منها، ويؤكد أن الزمان لا يفرِّق بين الأشياء إلا لكي يعيد إليها وحدتها، ويَعِدُ بأن كل هذه الأمور التي أزاحها الاختلاف، في مقدور الذات - في صورة الوعي التاريخي- أن تتملَّكها يومًا ما، لتبسط عليها هيمنتها وتجد فيها ما يمكن أن نسميه مقرَّها"[١٣]. يمكننا أن نقول إذن، إن التاريخ المتصل يجعل الذات في المركز؛ أما التاريخ المنفصل، فإنه يكشف تبعثر الذات ويلغي فاعليتها، إنه يلغي الذات الديكارتية كأصل ينبثق عنه كل شيء؛ فدعاة التاريخ المتصل، يجمعون على أن القول بالقطيعة والانفصال هو اغتيال للتاريخ ولمركزية الأنا.

وعلى عكس التاريخ التقليدي، سعى التاريخ الجديد إلى إقرار الانفصال في مختلف فروع المعرفة، وحاول أن يبدِّد وهم الاتصال الذي أقرَّه تاريخ الأفكار. إن الانفصال واقع يفرض نفسه على المؤرخ، ولم يعد بإمكانه منذ الآن أن يتجاوزه ويتجاهله، فوراء الاتصالات الكبرى للفكر يكمن انفصال ما، انفصال يصيب مفهومًا أو نظرية أو تصورًا، ودور المؤرخ الجديد هو تعقب هذا الانفصال ورصده في مستوياته المختلفة. إن تعقب الانفصال يرسم فضاء تبعثر ويلغي الاتصال والتجانس، فكل انفصال هو حدث فريد Événement singulier، ولم يعد ممكنًا ردّ هذا الحدث إلى أصل بعيد لا ينضب معينه؛ من هنا فإن الأركيولوجيا لا تسعى إلى إضفاء وحدة متجانسة على أثر ما œuvre أو حقبة، بل تسعى إلى بناء وحدة أساسها التبعثر وعدم التجانس.

لقد أصبح التاريخ الجديد يمارس عمله بشكلٍ عمودي وتخلص من المقاربة الأفقية الخطية، فلم يعد ينظر إلى الأحداث في تسلسلها ومسارها الخطي، بل صار يتعامل معها كأحداث لها شروط إمكان محددة؛ ويؤكد فوكو على أن النظرة الأفقية لا تقبض على الحدث في فرادته، إنها تدرس الأحداث الكبرى وتتجاهل العرضي والهامشي، والحال أن علة الحدث في الهوامش المجاورة له وليس في الماضي البعيد. لقد أدرك فوكو هذا التحول الذي أصاب مفهوم التاريخ، حيث بيَّن في كتابه "نظام الخطاب" بأن "التاريخ لم يعد يسعى منذ مدة إلى فهم الأحداث من خلال لعبة الأسباب والنتائج ضمن وحدة غير محددة المعالم لسيرورة كبرى، متجانسة على نحو غامض أو خاضعة لتراتب دائم، ليعثر ثانية على بنيات سابقة غريبة ومعادية للحدث؛ بل ليقيم سلاسل مختلفة ومتقاطعة ومتنافرة غالبا، لكنها ليست مستقلة عن بعضها، سلاسل تُمكِّن من الإحاطة بـ "موقع" الحدث وبهوامش عرضيته وشروط ظهوره"[١٤].

(13) Ibid, pp: 22-23.

(14) **Michel Foucault, l'ordre du discours,** édition Gallimard 1971, p: 58.
- نشير هنا أيضا إلى أننا اعتمدنا ترجمة الأستاذ محمد سبيلا لكتاب نظام الخطاب الصادرة عن دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

وفي الواقع، فإن التاريخ الجديد لن يكون سوى محاولة لتجاوز فلسفات التاريخ التي حاولت أن تنزع عن الحدث قوته التأسيسية[١٥]، وذلك من خلال سعيها إلى إيجاد علاقة سببية بين أحداث التاريخ الكبرى، وتجاهلها لأحداث أخرى تعتبرها هامشية وعرضية. لم تعد هناك مفاضلة بين الأحداث في التاريخ الجديد، أحداث كبرى هامة، وأخرى هامشية لا شأن لها؛ بل استعادت كل الأحداث قوتها، وذلك بفضل هدم فكرة الاتصال وإحلال مبدأ الانفصال الذي سمح لنا بإمكانية العودة إلى أحداث لم يكن التاريخ التقليدي يؤمن بإمكان إضافتها إلى سلسلة الأحداث المتعاقبة والمتصلة. "إن التاريخ الجديد تاريخ كلي يجمع الاقتصادي والفني والأنثروبولوجي في مقدمة اهتماماته، إنه تاريخ الأسعار وتاريخ الاقتصاد السياسي (وليس التاريخ السياسي)"[١٦]. إن هذا الرهان الذي سعى التاريخ الجديد إلى تحقيقه هو نفسه الذي تبنته الأركيولوجيا، وهذا يوضح لنا بجلاء الفرضية التي سبق أن ذكرناها والمتعلقة بالنقاط المشتركة العديدة التي تجمع الأركيولوجيا والتاريخ الجديد.

ينبغي إذن أن نتخلص من مقولة الأصل كخطوة أولى لتجاوز وحدات الخطاب التقليدية، فالأصل يزيح الانفصال ويطمس الحدث؛ "لأن وراء كل بداية متجلية، يكمن دائمًا وباستمرار أصل خفي"[١٧]، أصل تصير بمقتضاه كل البدايات استئنافًا واستعادة ممكنة؛ وينبغي، كخطوة ثانية، أن نتخلص من فكرة وجود خطاب قبلي يُستعاد دوما في كل تلفظ جديد، "وهذا الما سبق قوله Le déjà-dit، ليس مجرد جملة تم التلفظ بها، أو مجرد نص سبقت كتابته، بل هو شيء "لم يُقل أبدًا" « jamais dit »، إنه خطاب بلا نص، وصوت هامس همس النسمة، وكتابة لن تكون سوى دليلًا على انعدام أثرها الخاص"[١٨]. هناك إذن مسلمات تحكم حقل الخطاب، وهي المسلمات التي غالبًا ما تبناها تاريخ الأفكار ومعه فلسفات التاريخ، وقوامها أنه لا مجال في الخطاب لإمكانية ظهور الجديد والمختلف والأصيل، ما دام هناك أصل قابع في الخلف، يتعالى عن التاريخ ويحكم سيادته على كل بداية وينسف أصالتها وجدتها؛ وما دام هناك

(١٥) ينبغي أن نشير هنا إلى مسألة أساسية تتعلق بموقف التاريخ الجديد من فكرة الحدث التاريخي. إن التاريخ الجديد ينتقد فكرة الحدث؛ إذ نقرأ في كتاب جاك لوغوف، "التاريخ الجديد" ما يلي: "وكان هذا هو الوقت نفسه الذي تعهدت فيه مجلة الحوليات بنقد فكرة الحدث التاريخي نقدًا بلا هوادة فيه؛ إذ ليس هناك واقع تاريخي جاهز ينكشف تلقائيا للمؤرخ. إن المؤرخ، كأي رجل علم، على حد تعبير مارك بلوخ، يجب أن يحدد "اختياراته" أمام "واقع شاسع وغامض". وهذا الاختيار لا يعني بالطبع إجحافًا، ولا مجرد جمع، وإنما تركيبًا عِلميًا للوثيقة بما يسمح بإعادة رسم الماضي وتفسيره". ص: ٨٨. إن هذا الاقتباس يؤكد بصريح العبارة أن التاريخ الجديد ينتقد الحدث ويسعى إلى تجاوزه، لكن فوكو يؤكد أن الأمر ليس بهذه الكيفية؛ إن التاريخ الجديد لا ينتقد فكرة الحدث في كليتها، بل فهمًا معينًا لمفهوم الحدث، وهو الفهم الذي يسعى إلى إضفاء نوع من الهالة والتمجيد على الحدث التاريخي البارز ويتجاهل معطيات أخرى دقيقة لها دور كبير في تشكل ذلك الحدث؛ إن التاريخ الجديد بهذا المعنى لا ينتقد مفهوم الحدث نقدًا شاملًا، بل ينتقد الحدث الذي يسعى إلى تجاهل "واقع شاسع وغامض" من الأحداث الأخرى. (انظر: Michel Foucault, l'ordre de discours, pp: ٥٦-٥٧) في هذه الفقرة يوضح فوكو موقفه من هذه المفارقة.

(١٦) لوغوف جاك، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧، ص: ١٠٣.

(17) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 38.

(18) Ibid, pp: 38-39.

أيضًا خطاب قبلي يحضر دومًا وباستمرار داخل كل تلفظ جديد. "هكذا تحكم الفكرة الأولى على التحليل التاريخي للخطاب بأن يصبح اقتفاءً وصدى وإعادة لأصل ينفلت من كل تحديد تاريخي؛ أما الفكرة الثانية، فتحكم عليه بأن يغدو تأويلًا أو إنصاتًا لما قيل من قبل، والذي في نفس الوقت لم يُقل أبدا"[١٩]. وعليه، يستنتج فوكو بأن مفاهيم الاختلاف والتكرار لا يمكن أن تجد معناها داخل فكر يؤمن بالاتصالية وبوجود زمن واحد وأصل غابر في الزمن، إن الفضاء الأمثل لهذه المفاهيم هو فضاء التبعثر والأزمنة العديدة، حيث يغيب التجانس ويحل محله اللاتجانس؛ حينها يمكن لنفس الحدث أن يظهر مختلفًا، ويتكرر في حركة عود أبدي أساسها نفي التشابه والتطابق. لا ينبغي إذن "إحالة الخطاب إلى الحضور البعيد للأصل، بل ينبغي تناوله كخطاب لا أصل له"[٢٠].

سنتفق منذ الآن على أن الأركيولوجيا هي في الأساس محاولة لتجاوز مجموعة من المسلمات التي رافقت حقل الخطاب؛ والحقيقة أن دراستنا لهذه المسلمات أمر أساسي لكي نفهم السياق الذي ظهر فيه مفهوم التشكيلة الخطابية. هكذا سعت الأركيولوجيا إلى إدخال مدلولات جديدة في حقل الخطاب تتعارض مع ما كان سائدًا قبلها، يتعلق الأمر "بمدلول الحدث والسلسلة Série والانتظام، ومدلول شرط الإمكان Condition de possibilité؛ وهذه المدلولات تتعارض كما نرى مع مدلولات أخرى: الحدث مع الإبداع La création، السلسلة مع الوحدة، الانتظام مع الأصالة Originalité، وشرط الإمكان مع الدلالة La signification. إن هذه المدلولات الأربعة الأخيرة (الدلالة والأصالة والوحدة والإبداع) قد سيطرت بصفة عامة تقريبًا على التاريخ التقليدي للأفكار، حيث اتُفِقَ على البحث عن نقطة الأصل، وعن وحدة نتاج ما أو فترة أو قضية، وعن طابع الأصالة الفردية L'originalité individuelle، وعن الكنز غير المحدود من الدلالات المطمورة"[٢١]. بهذا المعنى، فإن الأركيولوجيا لا ترد وقائع الخطاب إلى أصل بعيد، بل تتعامل معها كأحداث خطابية Événements discursives لا أصل لها؛ كما أنها لا تبحث عن الدلالات الكامنة وراء الخطابات، بل تبحث عن شروط إمكان الخطابات ذاتها.

إن كل هذه الاحتياطات التي اتخذها فوكو، وكل هذه التعديلات التي أدخلها في مجال تحليل الخطاب تروم هدفًا واحدًا، التشكيك في كل التجميعات Groupements التي ألفناها والتي اعتدنا أن نقبل بها دون تساؤل أو تمحيص؛ وسينبهنا فوكو إلى أن تشكيكه في هذه الوحدات لا يروم إقصاءها بشكل نهائي؛ بل يسعى إلى الكشف عن شروط إمكانها والأساس الذي تقوم عليه. "وبعد انتقاد هذه الأشكال المباشرة التي يتقمصها الاتصال، سيتحرر ميدان بكامله؛ إنه ميدان رحب ويمكننا في تعريفه القول بأنه يتكون من مجموع العباراتénoncés الفعلية (التي جرى التلفظ

(19) Ibid, p: 39.

(20) Ibidem.

(21) **Michel Foucault, l'ordre du discours,** op-cit, p : 56.

بها وكتابتها) في تبعثرها كأحداث، وفي اختلاف مستوياتها"[٢٢]. وبإدخال فوكو لمفهوم الحدث في تحليل الخطاب، صارت غايته هي وصف هذه الأحداث الخطابية في تشتتها، وهذه الأحداث الخطابية هي ما يسميه فوكو بالعبارات. إن عمل فوكو اختباري خالص؛ وذلك لأنه يختار مجموعة من العبارات بوصفها معطيات أولية اعتُبرت جادة Sérieux في حقبة ما[٢٣]؛ فالعبارات هي الوقائع الخطابية، وبالتالي فإن مهمة الأركيولوجيا تكمن في وصف انتظاماتها[٢٤].

إن وصف الأحداث الخطابية يختلف بكيفية واضحة عن تحليل اللغة، فهذا الأخير يتساءل بصدد القواعد التي رافقت نشوء عبارة ما، وبالتالي يتساءل عن القواعد التي سَتتأسَّس وفقها كل عبارة جديدة؛ بينما يتساءل وصف أحداث الخطاب عن السبب الذي جعل عبارة ما تظهر بدل أخرى. لا يتعلق الأمر إذن "بالبحث عن قواعد تشكل العبارات الممكنة للغة ما، بل بالتساؤل عن فرادة العبارات المشكَّلة فعليًا، كيف يحدث أن تظهر هذه العبارة وليس عبارة أخرى مكانها؟"[٢٥]. ويختلف مشروع وصف الأحداث الخطابية أيضًا عن منهجية تاريخ الفكر L'histoire de la pensée، فإذا كان هذا الأخير يبحث في الخطابات عن "قصدية الذات المتكلمة، وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل وعلى بعض التجليات اللاشعورية التي برزت إلى واضحة النهار، فيما قالته صراحة أو ضمنًا"[٢٦]، فإن تحليل الحقل الخطابي Le champ discursive يركز على العبارة باعتبارها حدثا فريدا لا أصل له، كما أنه لا يحاول أن يبحث عمَّا وراء الخطاب، بل يُثبِّت نفسه في لحظة الخطاب ذاتها. هكذا يتم "إنجاز التحليل التعبيري L'analyse énonciative دون الإحالة إلى "ذاتية مؤسِّسة"Subjectivité fondatrice والتي تحضر داخل التاريخ في أشكال عديدة [...]؛ فالتحليل التعبيري يعالج حقل العبارات "ما نقوله" Le «on dit» باعتباره ميدان ممارسة مستقل [...]، وبكونه لا يخضع للزمن المبهم للفكر"[٢٧].

ويؤكد فوكو على أن انتقاده للوحدات الخطابية التقليدية كانت وراءه غاية أساسية، "أن نعيد للعبارة تَفَرُّدها كحدث، وأن نُظهر بأن الانفصال ليس مجرد حادث من تلك الحوادث التي تصيب الطبقات الجيولوجية للتاريخ بتصدع ما؛ بل إنه موجود مسبقًا في الفعل البسيط للعبارة"[٢٨]؛ إذ إن فعل العبارة هو في الأساس فعل فصل، كما أن الانفصال لا يحدث إلا بفضل العبارة، وبالتالي فإن ظهور عبارة جديدة يعني بروز انفصال جديد. إن الفكر الذي يؤمن بالاتصالية وبوحدة الخطابات لا يسمح بظهور العبارة ولا يعتبرها حدثًا فريدًا، إنه ينظر إليها بوصفه جزءًا لا يجد معناه إلا داخل الكل؛ لذلك فهو يحاول إرجاعها دوما إلى أصل غابر يتعالى عن التاريخ؛ إنه لا يتعامل معها بوصفها حدثًا

(22) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p : 41.

(23) **Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, Michel Foucault un parcours philosophique,** op-cit, p: 91.

(24) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** presses Universitaires de France, «les études philosophiques», 2015/ 3 N° 153, pages 391 à 412, p: 393.

(25) **Pierre Billouet, Foucault,** les belles lettres, paris, p: 107.

(26) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 42.

(27) **Pierre Billouet, Foucault,** op-cit, p: 107.

(28) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 43.

بارزًا يفصل الخطاب عن ماضيه ويعلن بداية جديدة، بل يعتبرها مجرد ترجيعة لقول سابق، إنها استئناف وليست بدءًا، صدى أصلٍ وليست نقطة انبثاق. أما الأركيولوجيا فهي تسعى إلى استعادة أصالة العبارة، إذ إنها تعتبرها حدثًا لا أصل له، وبالتالي فإن وظيفتها هي إحداث تصدُّع داخل نسيج الخطاب. بهذا المعنى تصير العبارة دليلًا على الانفصال والقطيعة Rupture؛ لذلك من البديهي ألا تجد معناها داخل فكر اتصالي ينادي بالوحدة، وهذا ما يدفع فوكو إلى الاعتقاد بأن إعادتنا الاعتبار للعبارة بوصفها حدثًا فريدًا رهين بالتخلص من وحدة الخطابات المزعومة.

يتجلى هدف مشروع وصف الأحداث الخطابية، من منظور فوكو، في تحرير الفضاء الذي تنتشر فيه العبارات باعتبارها أحداثًا خطابية، وذلك حتى يتسنى لنا إمكانية وصف مختلف العلاقات التي تتم داخل هذا الفضاء وخارجه. هكذا يُتيح وصف الأحداث الخطابية إمكانية الحديث عن وحدات أخرى؛ لأننا ننظر إلى الخطاب من منظور التبعثر بدل الوحدة، التنافر بدل الانسجام، والانفصال بدل الاتصال؛ كما يُتيح لنا أيضًا إمكانية تشكيل مجموعات خطابية هي في الواقع غير مرئية[٢٩]، لكنها تتوفر مع ذلك على قانون وشرط تشكُّلها، وهذا القانون يتجلى في مختلف العلاقات التي تنسجها العبارات فيما بينها. وتتسم هذه العلاقات بالفرادة، من حيث إنها لا تقدم نفسها بشكل صريح منذ الوهلة الأولى، بل يقتضي إظهارها نوعًا من التحليل الذي يستهدف العبارات على مستوى "وجودها المشترك وتعاقبها ووظيفتها المتبادلة وتحديدها المتبادل وتحولها المستقل أو المترابط"[٣٠].

وفي كل الأحوال، يتعلق الأمر بالنسبة لفوكو "بتناول ميدان دراسة خاص وتقسيمه بكيفية ملائمة، وبتعقب الحدود الفعلية للوحدات - علم النفس، العيادة، النحو العام - التي يستخدمها كموضوع له"[٣١]، ويمثل هذا العتبة الأولى نحو تطبيق المنهج الأركيولوجي. وبمجرد أن تنشأ فرضية أن العبارات يلزمها أن تكشف عن مبدأ وحدتها المستقل عن طريق دراسة وصفية أصيلة، يتوجب على فوكو أن يشرع في إعداد الأدوات المفاهيمية التي يستعملها الأركيولوجي لتعيين هذا الميدان الجديد[٣٢]. هكذا حاول فوكو أن يبحث عن ميدان تتعدد علاقاته وتكون نسبيًا قابلة للوصف، وقد اتخذ احتياطين اثنين لكي يضمن مشروعية مقاربته: في البداية، اقترح كاستراتيجية مؤقتة لتحليل الخطاب ميدان علوم الإنسان، حيث إن هذا الخطاب يمنح امتياز "ميدان تخاطر فيه العلاقات بأن تكون قليلة، كثيفة، وقابلة للوصف"[٣٣]، كما أنه ميدان لم يبلغ بعد مرحلة الصورنة على غرار العلوم الحقة. وسيؤكد فوكو على أن تحليل الأحداث الخطابية لا يقتصر فقط على علوم الإنسان، بل إن هذا الميدان لا يعدو

(٢٩) المقصود هنا هو التشكيلة الخطابية باعتبارها الفضاء الذي تنتظم داخله العبارات.

(30) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 45.

(31) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 394.

(32) **Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, Michel Foucault un parcours philosophique,** op-cit, p: 93.

(33) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 45.

أن يكون نقطة انطلاق لمزيد من التحليلات تهم ميادين أخرى وعلاقات جديدة.

التشكيلة الخطابية بوصفها وحدة خطابية جديدة:

لقد كان لزامًا علينا أن نتطرق إلى هذه المقدمات حتى نتمكن من فهم السياق الذي ظهر فيه مفهوم التشكيلة الخطابية؛ والحقيقة أن هذه المقدمات هي ما يشكل أساس هذا المفهوم، فالتشكيلة الخطابية بوصفها وحدة خطابية جديدة لا يمكنها أن تقوم دون تجاوز التاريخ المتصل ودون هدم مركزية الكوجيطو، ودون افتراض فضاء الخطاب بوصفه مجالًا غير متجانس تنتظم داخله العبارات بصورة مبعثرة؛ من هنا كان هَمُّ فوكو رصد هذا التبعثر وعدم ردِّه لا إلى ذات مؤسِّسة ولا إلى أصل بعيد. إن العبارات بوصفها أحداثًا خطابية تنتظم داخل ما يسميه فوكو بالتشكيلات الخطابية[٣٤]، "مجتنبًا بذلك ألفاظًا مثقلةً بالشروط والنتائج، وغير ملائمة بغية تعيين تبعثر كهذا، مثل العلم، أو الإيديولوجيا، أو ميدان الموضوعية"[٣٥]. وسنحاول الآن أن ندرس هذا الانتظام المتعلق بالتشكيلة الخطابية، وسننظر في ماهية العبارات التي تحتويها هذه الوحدة، كما سنسعى جاهدين إلى تبديد أشكال سوء الفهم التي قد ترافق هذا المفهوم.

سعى المشروع الأركيولوجي منذ البداية إلى وصف العبارات داخل حقل الخطاب والعلاقات التي يمكن أن تنشأ بينها، وهذا كله بهدف رصد أشكال الانفصال داخل الخطاب نفسه، إنه الانفصال الذي تُحدِثُه العبارة باعتبارها حدثًا خطابيًا ما يفتأ يتجدد؛ لكن السؤال الذي تطرحه الأركيولوجيا هنا هو: أي علاقة ممكنة تجمع بين العبارات؟ هل هي علاقة اتصال أم انفصال؟ وهل يمكن للعبارات أن تُشكِّل مجموعًا خطابيًا واحدًا لا انفصال فيه، كالعلوم المعاصرة مثلا التي ينظر إليها دعاة التاريخ المتصل بوصفها استمرارا لماضيها الخاص؟

لقد حاولت الأركيولوجيا أن تعيد النظر في تاريخ الفكر عن طريق تجاوزها لمجموعة من المسلمات، وبنبرة تكاد تكون ذاتية -وهو ما يدفعنا إلى اتخاذ حيطة أكبر- يؤكد فوكو رغبته في اختراق أربع فرضيات، كل واحدة منها تدَّعي اكتشاف المعيار الملائم لتشكيل تلك الوحدات الخطابية (علم النفس، الطب...)؛ هذه الفرضيات الأربع تبحث بالتناوب عن وحدة التشكيلات الخطابية فيما يخص موضوعاتها Objets، أنماطها التعبيرية Modalités énonciatives، مفاهيمها Concepts واستراتيجياتها Stratégies[٣٦]. وسنرى بأن كل واحدة من هذه الفرضيات تصطدم بفشل، وكل فشل يسمح بظهور شكل من التناقض، ويسمح بتشكل اختيارين ممكنين هما معًا

(34) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 393.

(35) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, pp: 56-57.

(36) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 394.
سنرى بأن هذه المكونات الأربع هي التي تشكل عناصر التشكيلة الخطابية.

خاطئان؛ وفي النهاية، وعلى سبيل تجاوز هذه التناقضات، يصوغ فوكو فرضيات جديدة تَحُلُّ مَحَلَّ الفرضيات القديمة[٣٧].

"الفرضية الأولى التي تقدم نفسها بهدف وصف العلاقات بين العبارات تتعلق بهوية الموضوع L'identité de l'objet"[٣٨]، حيث إن اعتقادنا في وحدة الخطابات راجع إلى افتراضنا أن العبارات وإن تعددت واختلفت داخل نسيج الخطاب، فإنها تظل مع ذلك تمثل مجموعًا؛ لأنها تعود دومًا إلى موضوع واحد: "إن العبارات المختلفة من حيث الشكل، والمبعثرة في الزمان، تُشَكِّل مجموعا إذا كانت ترجع إلى موضوعٍ واحدٍ ووحيدٍ"[٣٩]. ولكي يوضح فوكو هذا الأمر، استعاد مثالًا من كتابه تاريخ الجنون، "إن العبارات التي تنتمي إلى علم النفس المرضي Psychopathologie يبدو أنها ترجع كلها إلى هذا الموضوع الذي يتخذ صورًا وأشكالًا مختلفة في التجربة الفردية والاجتماعية، والذي بإمكاننا أن نسميه بالجنون"[٤٠]. تبدو مقاربة فوكو هذه واقعية إلى حد كبير، حيث سيكون هناك في البداية موضوع ساكن، ثابت، ومستمر في التاريخ؛ وخطابات سيكون بإمكانها القبض على هذا الموضوع ووصفه، والافصاح عن محمولات وتشكيل تصنيفات؛ ولكونها موَحَّدة تحت مرجع واحد، فإن هذه الخطابات ستندرج حتما داخل نفس الوحدة، تلك المتعلقة بعلم النفس المرضي، أو عمومًا "بالعبارات المتعلقة الجنون"[٤١]. والحقيقة أن فوكو لا يتوانى عن دحض هذا الافتراض، الذي يرى بأن جوهر الخطاب يوجد في معزل عنه، أي فيما يحيل عليه والذي يُفترض بأنه يتمتع باستمرارية.

إن الجنون باعتباره الموضوع الذي يدرسه خطاب علم النفس المرضي، لا يمكن تفريد أحداثه الخطابية ولا العلاقات القائمة بينها، على الرغم من أن الجنون يبدو ظاهريًا أنه يمثل وحدة تنتشر فيها العبارات على نحو قابل للوصف؛ وكما بَيَّن فوكو سنة ١٩٦٨ في ردِّه على حلقة الإبستمولوجيا، "في أركيولوجيا العلوم" « sur l'archéologie du science »، فإن وجهة النظر التي تَرُدُّ جوهر الخطاب إلى مرجع ثابت ليست مغرية بما فيه الكفاية؛ إذ إن وجهة النظر هذه تسمح بتكلفة أقل بتوحيد عبارات لا تمتلك كلها بالتأكيد نفس المستوى الصوري؛ ذلك أن هذه العبارات بعيدة عن أن تخضع كلها للمعايير المطلوبة التي تقتضيها عبارة علمية[٤٢]. هكذا ينتهي فوكو إلى استحالة تحديد العبارات التي سمحت بتشكل موضوع الجنون، من حيث إن هذا الأخير هو نتاج عبارات تُلفِظَ بها من قبل خطابات عديدة تعتقد قبليًا أن لها صلة مع هذا الموضوع: "لقد تشكل المرض العقلي انطلاقًا من مجموع ما قيل في كل العبارات التي كانت تسميه وتقوم بتقطيعه وتصفه وتفسره"[٤٣]. يمكن أن نقول إذن، بأن

(37) Ibidem.

(38) Ibidem.

(39) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 48.

(40) Ibidem.

(41) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 395.

(42) Ibidem.

(43) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 48.

موضوع الجنون قد تَشَكَّل انطلاقًا من عبارات، ولكن هذا الموضوع لا يمكن أن يكون أساسًا لوحدة هذه العبارات إلا بمقتضى مبدأ ما؛ ذلك أن الموضوع لا يسبق العبارات، بل هو نتاج لها[٤٤]، كما أن غاية الأركيولوجيا هي تعقب العبارات التي تسمح بظهور الموضوعات.

بإمكاننا أيضًا أن نتصور طريقة ثانية لكي ننقذ أولوية الموضوع من أجل تحديد مجموع خطابي، وهذا شريطة الاعتماد على بعض التعديلات؛ إن وحدة الخطابات حول الجنون تأتي من كونها ترجع إلى هذا الموضوع ذاته الذي تشكَّل على النحو الذي هو عليه، لكن هنا أيضًا، غياب الموضوع يحل محل انتشاره[٤٥]، فقد أظهر فوكو أن تشكل الموضوع لا يمكن أن يكون نهائيًا، إنه تشكل غير مكتمل، وبناء يحتاج دومًا إلى الترميم وإعادة البناء؛ كما أن "موضوعات العلم تخضع لتقلبات وتحولات وتغيرات دائمة"[٤٦]. هكذا فإن "هذا المجموع من العبارات المتعلق بالجنون، والذي يشكله في الحقيقة، بعيد عن الإحالة على موضوع واحد، وبعيد عن تشكيله بصورة نهائية والحفاظ عليه باعتباره أفق اكتماله الذي لا ينضب"[٤٧]؛ لقد اتخذ الجنون صورًا وأشكالًا عديدة عبر الزمان، وهذا ما ينسف وحدة هذا الموضوع ويبعثر مختلف عباراته وإن كانت تحيل على موضوع واحد. والحقيقة أن الفكرة التي ما

(44) **Baptiste Mélès, Les « Règles de formation » comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 396.

(45) Ibidem.

(46) **Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, Michel Foucault un parcours philosophique,** op-cit, p: 91.

(47) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, pp: 48-49.

فتئ فوكو يُرَدِّدُها في كتابه تاريخ الجنون هي أنه لا يمكننا أن نتحدث عن الجنون بـ (ال) التعريف، وإنما عن أشكال من الجنون، أشكال يحددها نمط العبارة التي تُلفظ، "فالموضوع الذي طُرح بوصفه ملازمًا لمجموع تلك العبارات، بواسطة العبارات الطبية للقرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر، لا يتطابق مع الموضوع الذي تبلور بواسطة الأحكام القانونية أو التدابير البوليسية؛ نفس الشيء بالنسبة لكل موضوعات علم النفس المرضي التي جرى تعديلها من بينل Pinel أو ايسكيرول Esquirol إلى بلويلر Bleuler، فهي ليست نفس الأمراض التي نتحدث عنها هنا وهناك، ولا يتعلق الأمر بنفس الفئة من المجانين"[٤٨]. ليس الموضوع غيابًا فقط، بل تعددية Multiplicité؛ وسواء تعلق الأمر بلحظة ما قبل الخطابات أو ما بعدها، فإن الموضوع لا يمتلك وحدة أو صورة ثابتة وساكنة[٤٩].

إن تعريف المجموعات الخطابية من خلال موضوعها غير مقبول لسببين: أولًا؛ لأن موضوعًا واحدًا بإمكانه أن ينتمي داخل التاريخ إلى مجموعات خطابية عديدة ومتميزة؛ وثانيًا؛ لأن مجموعًا خطابيًا واحدًا بإمكانه أن يتضمَّن عدة موضوعات، أو بإمكانه تشكيل موضوعه بطرق مختلفة[٥٠]. وعليه، فإن أركيولوجيا فوكو لا تحاول أن تقصي مفهوم الوحدة، وإنما ترغب في تأسيسه على منطلقات جديدة، وحدة لا تجد

(48) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 49.

(49) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 396.

(50) Ibidem.

معناها في فرادة موضوع الخطاب واستمراره عبر الزمن، وإنما في تبعثر هذا الموضوع وتحوله المستمر. "لا ينبغي إذن افتراض وجود موضوع ثابت سابق في وجوده على كل الخطابات، بل ينبغي على العكس من ذلك إقرار هذا التبعثر ووصفه في ذاته"[٥١]؛ من هنا فإن الطريقة الوحيدة التي تسمح لنا بإمكانية تفريد مجموعة من العبارات وتمييزها تتمثل في رصد مختلف الموضوعات الملازمة لتلك العبارات، وتعقب مختلف التحولات التي تطرأ عليها عبر الزمان، وهذا كله استنادًا إلى قاعدة الانبثاق المتزامن والمتعاقب La règle d'émergence simultanée ou successive لهذه الموضوعات.

إن وحدة خطاب ما لا تتأسس بالضرورة على وجود موضوع واحد يمكن أن يحيل عليه هذا الخطاب بشكل دائم، بل تتأسس على قواعد هي في آن واحد شرط إمكان كل موضوع يظهر، وهي أيضًا المسؤولة عن القطائع والانفصالات التي تغير دومًا ماهية الموضوع. من هنا نستنتج بأن الوحدات التي تدرسها الأركيولوجيا "لا تتأسس على وحدة المرجع، بل تتأسس، وعلى العكس من ذلك، على تعددية هذا المرجع غير القابلة للاختزال"[٥٢]؛ فالخطاب هو دومًا فضاء شاسع يسمح بإمكانية نشوء مواضيع داخله بناءً على قواعد محددة، ويتيح لهذه المواضيع فرصة الانقلاب على ذاتها، وإعلان بداية جديدة. هكذا يخلص فوكو إلى أن "تحديد مجموعة من العبارات فيما يكمن فيها من خصوصية وفردية يتمثل في وصف تبعثر تلك الموضوعات، وإدراك الفجوات التي تفصلها، وقياس المسافات السائدة بينها؛ وبعبارة أخرى، يتمثل في صياغة قانون توزعها"[٥٣].

الفرضية الفوكوية الثانية تتعلق بكون التقطيع الملائم للعلاقات بين العبارات يرتبط بشكلها وبنمط تسلسلها[٥٤]؛ فقد اعتقد فوكو "أن الطب كان يتميز ابتداءً من القرن التاسع عشر بأسلوب معين وخاصية ثابتة في التعبير، أكثر مما كان يتميز بموضوعاته ومفاهيمه"[٥٥]، وبالتالي فإن الأولوية هنا سيحظى بها النمط التعبيري وليس المرجع. وقد استند فوكو هذه المرة إلى كتابه "ميلاد العيادة" لتوضيح هذا الأمر؛ حيث توصل فوكو في هذا الكتاب إلى أن الطب قد تشكل انطلاقًا من "متن من المعارف، يفترض نفس النظرة التي نخص بها الأشياء، ونفس التأطير للحقل الإدراكي، ونفس التحليل للظاهرة المرضية حسب الجانب المنظور من الجسم، ونفس النظام في كتابة وتدوين ما ندركه فيما نقوله"[٥٦]؛ لقد بدا له باختصار "أن الطب ينتظم بوصفه سلسلة عبارات وصفية"[٥٧]. مرة أخرى، سيكون لزامًا على فوكو تجاوز هذه الفرضية التي سبق أن أقرَّها

(51) Ibidem.

(52) Ibidem.

(53) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 50.

(54) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 397.

(55) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 50.

(56) Ibidem.

(57) Ibidem.

في كتابه "ميلاد العيادة"[٥٨]، وسيتوصل إلى أن الخطاب الطبي لم يكن يتأسس فقط انطلاقًا من سلسلة من العبارات الوصفية، بل من عبارات أخرى تحيل على مواضيع عديدة تملأ كلها نسيج هذا الخطاب، "فالخطاب الطبي هو عبارة عن مجموعة من الفرضيات حول الحياة والموت، ومجموعة من الاختيارات الأخلاقية والقرارات العلاجية والقوانين المؤسساتية والنماذج التعليمية، وليس فقط مجموعة من الأوصاف"[٥٩]. وكما أن موضوع الخطابات حول الجنون قد عرف تغيرات كبيرة؛ فإن نمط الوصف لن يترك نفسه محصورًا في نمط واحد، إنه سيظهر على النقيض من ذلك في صورة تعددية[٦٠]؛ وإذا كان التعبير الوصفي حاضرًا ضمن الخطاب الطبي؛ فإنه لا يعدو أن يكون مجرد صيغة من الصيغ الحاضرة داخل هذا الخطاب، والتي لا يمكن أن يوجد في استقلال عنها.

هذا الفشل الجديد قاد فوكو إلى فرضية جديدة، "إذا لم يكن بإمكاننا عزل النمط التعبيري الواحد المؤسس لوحدة خطاب ما، فإنه يتوجب على الأركيولوجيا بالتحديد أن تدرس هذا الشكل من التبعثر المتعلق بالأنماط التعبيرية"[٦١]، فالخطاب حسب فوكو لا يمكنه أن يتشكل انطلاقًا من نمط واحد من العبارات، بل إنه يستدعي حضور عبارات مختلفة تجتمع كلها لكي تؤسس لنا وحدة هذا الخطاب، وحدة لا تجد معناها في تجانس هذه العبارات، بل في تبعثرها وانبثاقها المُطَّرِد؛ من ثمة يصير المبدأ المحدِّد لوحدة الخطاب هو مجموع القواعد التي تسمح بإمكانية ظهور العبارات داخل نسيج هذا الخطاب، سواء كان ظهورًا متزامنًا أو متعاقبًا. إن كل خطاب هو فضاء لمجموعة من العبارات المختلفة، سمتها التبعثر وعدم التجانس، وأن وظيفة الأركيولوجيا تكمن في تحديد خصائص هذا الوجود المشترك للعبارات، ودراسة كل العلاقات الممكنة بينها. وكما أن "تاريخ الجنون" هو تاريخ لأشكال الجنون التي لا يمكن أن نختزل بعضها في البعض الآخر، فإن "ميلاد العيادة" هو دراسة لعيادات دون (الـ) التعريف، إنه دراسة للتعددية المتنافرة وغير القابلة للتجاوز التي يحضر بها الطب إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٦٢].

أما الفرضية الفوكوية الثالثة التي يضعها

(٥٨) إن هذه التصحيحات التي أدرجها فوكو في كتابه أركيولوجيا المعرفة تبين لنا أهميته الكبرى داخل المتن الفوكوي؛ فقد سبق لفوكو أن صرّح في مقدمة مؤلَّفه هذا بأن "هذا الكتاب ليس استعادة ووصفًا دقيقًا لما نقرؤه في سطور كتاب تاريخ الجنون، أو ميلاد العيادة، أو الكلمات والأشياء، بل يختلف عنها في عدد هام من النقاط، وينطوي على عدد لا يستهان به من التصحيحات والانتقادات الداخلية". (انظر: l'archéologie du savoir, pp: ٢٧-٢٨). والحقيقة أن فوكو يعطي بذاته امتيازا واضحا لهذا الكتاب، ففي إحدى الحوارات التي أجراها يقول: "لقد كنت مغمض العينين في اللحظة التي كنت أنجز فيها كتاب تاريخ الجنون وميلاد العيادة، لكن مع كتاب الكلمات والأشياء، تمكنت من فتح عين واحدة وظلت الأخرى مغمضة؛ وفي النهاية، حاولت في كتاب أركيولوجيا المعرفة أن أحدد المكان الصحيح الذي منه كنت أتحدث". (انظر: Entretien avec Michel Foucault sur l'archéologie du savoir: texte N, ٨٥ p: ١٥٧, Tome ٢). وقد وصف بول فاين كتاب فوكو هذا قائلا: "إن أركيولوجيا المعرفة كتاب مجازف ومذهل في نفس الوقت، لقد كان فوكو على وعي بما يقوم به داخل هذا الكتاب؛ علاوة على ذلك، فإن فوكو وانطلاقا من هذا الكتاب، سيدفع بنظريته نحو أفق اكتمالها المنطقي". (انظر: Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, p: ٣٨٥).

(59) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 50.

(60) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 397.

(61) Ibidem.

(62) Ibidem.

فوكو من أجل تعيين مجموع خطابي، فتنطلق من التساؤل عن إمكانية البحث عن وحدة الخطاب بناء على وحدة المفاهيم التي تنشط داخله: هل يمكننا أن نقول بأن العبارات تشكل مجموعًا موحدًا إذا كانت تحيل على بنية مفاهيمية منسجمة ومتناسقة؟ هذه المرة، ستكون الأولوية من نصيب "منظومة المفاهيم الدائمة والمتناسقة" التي يستعملها النمط التعبيري من أجل وصف الموضوع[٦٣]، وليس الموضوع أو النظرة الواحدة[٦٤]. ينطلق فوكو من فكرة بديهية سرعان ما يكشف تهافتها، "أفلا يستند تحليل اللغة والوقائع النحوية لدى الكلاسيكيين [...] على عدد محدد من المفاهيم التي كان مضمونها واستخدامها قد وُضع بصورة نهائية، مثل مفهوم الحكم Jugement الذي يعرف على أنه الشكل العام والمعياري لكل جملة، ومفاهيم الموضوع والمحمول Sujet et attribut التي تندرج تحت المقولة العامة للاسم Nom، ومفهوم الفعل Verbe الذي يُستعمل كمكافئ لمفهوم رابطة الحمل المنطقية Copule logique، ومفهوم الكلمة Mot الذي يُحدَّد بوصفه علامة على تمثل Représentation"[٦٥]: فإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن إمكانية بناء صرح مفاهيمي للنحو الكلاسيكي تغدو ممكنة. لقد سعى فوكو إلى تجاوز هذه الفرضية، حيث انتهى إلى أن المفاهيم داخل حقل الخطاب لا يمكنها أن تشكل مجموعًا موحَّدا ومنسجمًا، والعلة في هذا أن هذه المفاهيم تخضع لقاعدة الانبثاق المتزامن أو المتعاقب، انبثاق يفسح المجال لظهور مفاهيم جديدة لا تربطها أي علاقة مع باقي المفاهيم. وبالعودة إلى المثال الذي ساقه فوكو، تبين له أن وصف التحليلات التي قام بها نحاة بور رويال Port-Royal ينتهي به إلى "ملاحظة ظهور مفاهيم جديدة، وإذا كان بعض هذه المفاهيم الجديدة مشتقا من المفاهيم الأساسية الأولى، فإن البعض الآخر ليس متجانسًا معها؛ بل إننا نلاحظ أن فئة منها لا تتوافق معها"[٦٦]؛ وبالتالي فإن كل محاولة تدَّعي إمكانية بناء صرح مفاهيمي للنحو العام تنتهي إلى الحصول على هندسة منطقية مليئة بالتناقضات[٦٧].

إن وحدة الخطاب حسب فوكو ممكنة، لكن ليس في تناسق المفاهيم، بل في تبعثرها؛ وبالتالي فإن وظيفة الأركيولوجيا لا تكمن في وصف منظومة المفاهيم المشتركة، بل في وصف منظومة من التعارضات، "إنها لا تسعى إلى أن تبحث عن صرح المفاهيم العامة والمجردة بما يكفي بغرض الانتباه إلى كل المفاهيم الأخرى وإدخالها في الصرح الاستنباطي ذاته، بل تحاول تحليل أشكال ظهورها وتبعثرها"[٦٨]. سنقول إذن بأن الأركيولوجيا لا تسعى إلى إقصاء مفهوم الوحدة، بل تحاول أن تنظر فيه من زاوية أخرى بعيدا عن وهم الاتصال والتجانس.

وأما الفرضية الرابعة والأخيرة، والتي

(٦٣) إن هذه الفكرة توضح لنا كون عناصر التشكيلة الخطابية كما حددها فوكو لا توجد في معزل عن بعضها، بل تربطها علاقات متبادلة.

(64) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p : 398.

(65) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 52.

(66) Ibidem.

(67) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 398.

(68) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 53.

يسوقها فوكو بغية تبين وحدة مجموع خطاب ما، فإنها تتعلق "بهوية واستمرار الثيمات"[٦٩]؛ فقد أكد فوكو، على سبيل الافتراض المنهجي، أن بإمكان ثيمة[٧٠] واحدة أن تُشَكِّل مجموعًا خطابيًا "له حاجياته وقوته الداخلية وطاقاته في البقاء"[٧١]، وعلى أساس هذه الثيمة، تنتظم مجموعة من الخطابات داخل نفس المجموع. إن الثيمة تمارس دومًا سلطة سيادية على المعارف، إنها تتربص بها من بعيد وتنتظر منها أن تبوح بشيء يرتبط بها، وذلك لكي يتسنى لها تحويلها إلى معرفة خطابية وتَضُمَّها إلى مجموع ما يفتأ يتوسع. وهاهنا أيضًا، يكشف فوكو عن تهافت هذه الفرضية، "حيث أظهر بأن ثيمة واحدة بإمكانها أن تنتمي إلى وحدتين خطابيتين مختلفتين أشد الاختلاف"[٧٢]، وهذا ما حاول فوكو إبرازه من خلال المثال المتعلق بثيمة التطور Le thème évolutionniste.

إننا نعتقد في بادئ الأمر، أن بإمكاننا أن نُشَكِّل وحدة خطابية انطلاقًا من كل ما كان له علاقة بثيمة التطور، وأن هذه الوحدة الخطابية لا يمكن أن نضعها موضع سؤال؛ لأنها تمتلك ثيمة ثابتة ومستمرة. حسب فوكو، فإن هذا الأمر ليس صحيحًا، والعلة في ذلك أن "الفكرة التطورية في صيغتها الأعم، ربما هي نفسها لدى كل من بونوا دو مايي Benoit de maillet وبورده Bordeu وديدرو Diderot وداروين Darwin؛ لكن الحقيقة أن شروط إمكانها وتناسقها ليست واحدة هنا وهناك"[٧٣]؛ فإذا كانت الفكرة التطورية في القرن الثامن عشر قد تحددت انطلاقًا من القول بوجود قرابة بين الأنواع، فإنها اهتمت في القرن التاسع عشر برصد أشكال الانفصال التي شهدها الجدول المتصل للأنواع؛ هناك إذن "ثيمة واحدة، لكن انطلاقًا من نوعين من الخطاب"[٧٤]. هكذا يستنتج فوكو أن هوية ثيمة ما ليست شرطا كافيا لكي نستخلص وحدة خطابية؛ لأن هناك وحدات مختلفة بإمكانها أن تختفي وراء المظهر المتصل لثيمة محددة"[٧٥].

ما يحول كذلك دون إمكانية تأسيس وحدة الخطاب بناء على وحدة الثيمة التي تنشط داخله، هو أنه بإمكان مجموع خطابي واحد أن يتضمن ثيمتين متعارضتين؛ في هذه الحالة، فإننا نجد وحدة خطابية واحدة، تستخدم نفس المفاهيم ونفس الكيفية في التحليل، إلا أنها تمثل فضاء لانتظام آراء متعارضة. وهذا ما حاول فوكو توضيحه أيضا من خلال مثال تحليل الثروات l'analyse des richesses بوصفه مجموعا خطابيا؛ فقد كان هذا الأخير "يتضمن مجموعة من المفاهيم المحصورة والمحدودة نسبيًا والمقبولة من طرف الجميع، (حيث قُدِّم نفس التعريف للنقد، ونفس التفسير للأسعار، وسعر العمل كان يُحَدَّدُ بنفس الكيفية)"[٧٦]، إلا أنه

(69) Ibidem.

(٧٠) ارتأينا هنا ترجمة مصطلح Thème بـ "ثيمة" وليس "موضوع" التي نضعها في مقابل Objet؛ فالثيمة هنا لا تفهم بمعنى الموضوع، بل يقصد بها فوكو الاستراتيجيات التي يسمح بها الخطاب.

(71) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 53.

(72) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 399.

(73) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 54.

(74) Ibidem.

(75) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 399.

(76) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 54.

مثّل فضاءً لانتشار اختيارين متباينين، الأول يرتبط بالثيمة الفيزيوقراطية La physiocratie، والثاني له علاقة بمن يُسمَّون بالنفعيين Les utilitaristes؛ هكذا فإننا نجد "انطلاقًا من نفس المجموعة المفاهيمية الواحدة، كيفيتين لتفسير نشأة القيمة، وذلك حسب تحليلنا لها انطلاقا من المبادلة، أو انطلاقا من تكلفة أجر العمل اليومي"[٧٧]. أين هي إذن هذه الثيمة التي بإمكاننا أن نحدد مجموعًا خطابيًا انطلاقًا منها؟ الواقع أننا لا نجد سوى اختيارات متباينة داخل الخطاب؛ وبدل أن نؤسس وحدة هذا الأخير على وحدة مضامينه وثيماته، يلزمنا أن نؤسسها على تبعثر هذه المضامين.

إن الخطاب يتيح دوما عددا كبيرا من الاختيارات، فهو يسمح بإمكانية إحياء أفكار قديمة، ويُفسح المجال لموضوعات أخرى كي تتوارى وتختفي، وفي هذه الاختيارات يكمن مبدأ تفرُّد Individualisation الخطاب وتَمَيُّزِه لا في استمرار نفس الثيمات عبر الزمان. هكذا يعود فوكو إلى مسألة أساسية وردت في كتابه "الكلمات والأشياء": "إن الكيفية الملائمة للتعامل مع اختيارات نظرية لا تكمن في حساب القاسم المشترك للآراء؛ بل تكمن في تحديد انطلاقًا مِمَّاذا كان من الممكن أن تكون هناك آراء"[٧٨]. بهذا المعنى، فإن وظيفة الأركيولوجيا تكمن في تعقب نقط الاختيار، وتحديد حقل الممكنات الاستراتيجية التي يسمح بها الخطاب.

وكما أن الوحدات الخطابية التي حددتها الأركيولوجيا لا تعتمد على وحدة الموضوع بل على تبعثر الموضوعات؛ ولا على الوحدة المتعلقة بوضعية الذات بل على تعددية هذه الوضعيات الممكنة والمتنافرة؛ ولا على وحدة منظومة مفاهيم بل على منظومات التعارضات بين المفاهيم؛ فإنه ليست وحدة الرأي في حقبة محددة، بل انفصال الآراء الممكنة في هذه الحقبة بالذات هو الذي مكّن الأركيولوجيا من تفادي الاتصالات الخاطئة fausses continuité وسمح لها بتبيُّن وجود تعارضات وصراعات بين الخطابات[٧٩].

إن النتيجة التي خلُص إليها فوكو هي أنه لا جدوى من البحث عن وحدة الخطاب استنادا إلى وحدة الموضوعات والأنماط التعبيرية والمفاهيم والثيمات التي تنشط داخله؛ لأن تحليل الخطاب يُفَنِّدُ وجود هذه الوحدة المتصلة والمتجانسة؛ فعندما نتحدث عن الموضوعات، فإننا لا نجد سوى سلاسل مليئة بالثغرات والاستبدالات والتحولات؛ أما تحليل الأنماط التعبيرية، فقد كشف لنا وجود صيغ تعبيرية مختلفة ذات وظائف غير متجانسة؛ أما فيما يخص المفاهيم، فقد اكتشفنا وجود مفاهيم تختلف من حيث بنيتها وقواعد استخدامها، الشيء الذي يجعلها غير قابلة لأن تجتمع في بناء منطقي منسجم. وأخيرًا، وفيما يتعلق بالثيمات؛ فإننا وجدنا بأن الخطاب يتيح ممكنات عديدة ومتباينة تنسف وحدة الثيمة واستمرارها. هكذا توصل فوكو

(77) Ibid, p: 55.

(78) **Baptiste Mélès, Les «Règles de formation» comme catégories foucaldiennes,** op-cit, p: 400.

(79) Ibidem.

إلى نتائج تتعارض مع الفرضيات التي سبق أن انطلق منها، وهي فرضيات سعت إلى البحث عن الوحدة في مكان يسود فيه التبعثر، من هنا كانت وظيفة الأركيولوجيا هي وصف هذا التبعثر ذاته[٨٠]؛ فالوحدة التي تقر بها أركيولوجيا فوكو لا تستند إلى اتصال العبارات وتجانسها، بل تتأسس على تبعثر هذه العبارات وعلى انبثاقها المتزامن أو المتعاقب؛ إنها وحدة تُمَجِّدُ الاختلاف وتَنبُذُ التشابه، ترسم فضاء تبعثرٍ وتُقصي الاتصال.

يمكن أن نقول إذن، بأن الأركيولوجيا تهدف أساسًا إلى وصف الأحداث الخطابية في تبعثرها، وذلك بهدف إيجاد شكل من الانتظام بين هذه الأحداث، "كنظام ظهورها المتعاقب، مواقعها القابلة للتعيين داخل فضاء مشترك، طريقة عملها المتبادلة، وتحولاتها المرتبطة والمتراتبة"[٨١]؛ كما أنها لا تحاول أن تبحث عن تناسق ممكن داخل نسيج الخطاب قصد تشكيل وحدة متجانسة ومنغلقة على ذاتها، بل إن غرضها هو رصد أشكال التوزع Formes de répartitions داخل تشكيلة خطابية.

بعد أن عرضنا هذا الجُماع من الأفكار، والذي لا يمكن أن ننكر تشابكه وتداخله، والذي نردُّه في الحقيقة إلى طبيعة الموضوع وإلى فكر فوكو على وجه الخصوص، يحق لنا أن نتساءل: ما هي بالتحديد دلالة مفهوم التشكيلة الخطابية عند فوكو؟ وهل كان من اللازم أن نقطع كل هذه الأشواط لكي نصل إلى حدِّ هذا المفهوم؟

صحيح، فكل ما ذكرناه إلى الآن سيسعفنا لا محالة في فهم دلالة التشكيلة الخطابية كما حددها فوكو؛ والحقيقة أن تثبيت دلالة واحدة لهذا المفهوم هو أمر في غاية من الصعوبة، إذ إننا نجد بأن هذا المفهوم قد اتخذ صورا عديدة على مدى كتاب أركيولوجيا المعرفة، "حيث إننا نراوح الخطو باستمرار بين تأويل لمفاهيم "المنظومة" «système»، "القواعد" «règles»، وتأويل آخر لمفهوم التبعثر «Dispersion»"[٨٢].

سنقول إذن؛ إنه في الحالة التي يكون فيها بإمكاننا وصف تبعثر -كذاك الذي رصدناه في التحليلات السابقة- بين عدد معين من العبارات؛ وفي الحالة التي يكون فيها بإمكاننا تحديد انتظام ما بين الموضوعات والأنماط التعبيرية والمفاهيم والاختيارات النظرية، انتظام قد يتخذ شكل (نظام، ترابطات، مواقع، طرق عمل، تحولات)، سنقول باتفاق بأننا أمام تشكيلة خطابية[٨٣]. وقد سبق أن ذكرنا آنفا، بأن فوكو قد صاغ هذا المفهوم بوصفها بديلًا عن تلك الوحدات التقليدية التي تكرس الاتصال والتجانس، وهنا نقول أيضًا بأن التشكيلة الخطابية هي بالتعريف مجموعة من العبارات تخضع لانتظام واحد، إنها الفضاء الذي يحوي عددًا من الأحداث الخطابية المبعثرة والتي تتجاوز كل تناسق. ولكي يضفي فوكو تناسقًا على مشروعه الجديد هذا، صاغ مفهومًا آخر يرتبط بالأول ارتباطًا وثيقًا، إنه مفهوم "قواعد التشكُّل"Les règles

(80) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 56.

(81) Ibidem.

(82) **Dominique Maingueneau, Pertinence de la notion de formation discursive en analyse de discours,** op-cit, p: 88.

(83) **Michel Foucault, l'archéologie du savoir,** op-cit, p: 56.

de formation، ويقصد به شروط وجود الأحداث الخطابية داخل تشكيلة خطابية ما باعتبارها فضاء تتوزع داخله مختلف العبارات؛ فقواعد التشكل تنظر في شروط إمكان الموضوعات والأنماط التعبيرية والمفاهيم والاستراتيجيات، بالإضافة إلى وجودها المشترك ونمط الاحتفاظ والتعديل والاختفاء الذي تتعرض له.

إن رهان فوكو يكمن في التخلص من تلك التجميعات التي ألفناها والتي تكرّس وحدة الخطاب واتصاله، وإقرار بديل لها وهو التشكيلة الخطابية، رهان لا يكاد يخلو من مخاطر؛ فالتشكيلة الخطابية قد تقلب تاريخ الأفكار رأسًا على عقب، وقد تفتح أفقًا جديدًا في التأريخ لها؛ قد تنسف التشكيلة الخطابية وحدات عمَّرت لقرون، وقد تقر انفصالات لم يسبق لها الظهور. علاوة على هذه المخاطر، يطرح مشروع فوكو هذا مجموعة من الأسئلة: إلى أي حد تُعتبر التشكيلة الخطابية بديلًا مناسبًا لتلك التجميعات التي اعتاد تاريخ الأفكار على ترديدها؟ هل التشكيلة الخطابية قادرة على تحديد مختلف الخطابات في شموليتها ومنحاها التاريخي؟ وما درجة علمية هذه التشكيلات الخطابية التي يراهن عليها فوكو؟

وباختصار نقول، إن تفكيك فوكو لمختلف الوحدات والتجميعات التقليدية، وتَخَلُّصه من تلك المفاهيم التي تكرس اتصال الخطاب، وتخليه عن سؤال الأصل، وإلغائِه الحضور المُلِّح للمؤلفين، كل هذا قاده طردًا إلى مَحْوِ كل ما كان يشكل في الأصل تاريخ الأفكار؛ فأركيولوجيا فوكو هي في الحقيقة بدءٌ وليست استئنافًا، فهي لا تنزع نحو تثمين ما هو موجود، بل تضرب عنه صفحًا وترسم لنفسها طريقًا جديدًا يصعب توقعه؛ طريق تتحدد معالمه من خلال تعيين أرضية جديدة تسمح بتحليل الخطاب ورصد انفصالاته وتحديد مختلف العلاقات التي تنشأ بين العبارات داخله.

على سبيل الختم:

لاحظنا كيف أن فوكو قد نسج حوارات، صريحة وضمنية، مع تصورات فلسفية سابقة عليه، كي يتمكن من بناء منهجه الأركيولوجي؛ ذلك أن غاية الأركيولوجيا هي اكتشاف لعبة العلاقات التي تحكم ظهور واختفاء العبارات بعيدًا عن الاستنجاد بأي أفق متعالٍ، أفق قد يتخذ شكل ذات متعالية، أو أصل بعيد يقبع خلف ما هو ظاهر، أو كلية تجمع الشتات وتُوَحِّدُه. ومن المعلوم أن هذه التصورات التي تجاوزها فوكو تعود لفلاسفة سابقين عليه، أمثال ديكارت وهيغل وهوسرل، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الثورة الكبيرة التي أحدثها فوكو في ميدان الفكر والخطاب. ولا ندعي أننا استوفينا كل التحليلات المتعلقة بالمنهج الأركيولوجي؛ بل إننا سلطنا الضوء فقط على مفهوم واحد من المفاهيم التي يستند إليها هذا المنهج، ونقصد بالتحديد مفهوم التشكيلة الخطابية؛ ذلك أن هذا الأخير هو الذي مكَّن فوكو من تقويض إرث فلسفي كبير سابق عليه، حَالَ، من منظوره، دُونَ إمكانية تحقيق فهمٍ أعمق لتاريخ الفكر بوصفه تاريخ انفصلات وقطائع وليس تاريخًا خطيًا.

البيبليوغرافيا

المصادر بالفرنسية:

1. Foucault Michel, l'archéologie du savoir, édition Gallimard, 1969, Paris.
1. Foucault Michel, l'ordre du discours, édition Gallimard, 1971.
1. Foucault Michel, Histoire de la folie, édition Gallimard, 1972.

المصادر بالعربية:

- فوكو ميشيل، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠١٥.
- فوكو ميشيل، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ٢٠١٢.

المراجع بالفرنسية:

1. Dreyfus Hubert et Rabinow Paul, Michel Foucault un parcours philosophique, édition Gallimard, 1984, pour la traduction française.
1. Billouet Pierre, Foucault, les belles lettres, paris.
1. Veyne Paul, Comment on écrit l'histoire, Editions du Seuil, 1971.

المراجع بالعربية:

- لوغوف جاك، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧.

المقالات:

1. Mélès Baptiste, Les « Règles de formation » comme catégories foucaldiennes, presses Universitaires de France, « les études philosophiques », 2015/ 3 N° 153, pages 391 à 412.
1. Maingueneau Dominique, Pertinence de la notion de formation discursive en analyse de discours, édition de la maison des sciences de l'homme « langage et société », 2011/1 n° 135, pages 87 à 99.

الحوارات:

1. Foucault Michel, Dits Et écrit 1954-1988, édition Gallimard, Tome 3, 1976-1979, la scène de la philosophie, entretien avec M. Watanabe, le 22 avril 1978, sekai, juillet, 1978, pp. 312-332.
1. Foucault Michel, Dits Et écrit 1954-1988, édition Gallimard, Tome 2, 1970-1975, Entretien avec Michel Foucault, texte N° 85.

المحاضرات:

دروس جيل دولوز حول فوكو على شكل نصوص مكتوبة في موقع:

www. La voix de Gilles Deleuze.com